عيب واحد !!

بلغ الضيق بحماد مبلغا عظيما ، لفشله فى إصلاح عبـده وتأديبه ، وإفهامه أنه بمـا يفعل يغضب ربه وخالقه ، وأن إفساد ذات البين يحبط العمل ، ويضر الإيمان . ولـكن دون جدوى . .

لقـد اتبع معه مختلف الوسائل وشتى الطرق . بالتخويف تارة ، والضرب أخرى ، والإرهاب مرة ثالثة ، ثم بالـكلام اللاذع ، واللفظ القاسى والأسلوب المرير ، ولـكن الحال كما هو لم يختلف ، من يوم أن اشتراه . . كل حظه من الحياة ألايرى اثنين متحابين ، وكأن حسن الصلة بين الناس تلهب بدنه ، وتضنى فؤاده ، وتمزق كبده ، وتلذع قلبه لذعا ، فهو لا يطيق أن يصبر على هذا ، ولا يستريح إلا حيث يشتجر الناس ، وتضطرب الحياة .. أما الهدوء والاستقرار .. أما المحبة والمودة ، والصداقة والألفة فذلك ألم له وأىّ ألم ، وعذاب وأى عذاب ، ولله فى خلقه شئون . . ! !

واستقر رأى حماد على بيعه والتخلص من شره . .

ولـكن هل يكتم هذا العيب اللعين ؟ إنه لو كتمه لأمكنه أن يبيعه بمبلغ كبير ، ويربح فيه ربحا عظيما ، بيد أن هذا حرام ، لأنه غش لايجوز لمسلم أن يقع فيه ، فمن غش مسلما فليس بمسلم إسلاما تاما ، إذن لا بد أن يعلن هذا العيب ، ويقول لمن يريد شراءه : إنه نمام . .

غير أن إعلان هذا العيب سيزرى بهذا العبد ، وربما يصرف عنه كل

من يريد الشراء ، فمحال أن يشترى إنسان شخصا ، وهو يعرف أنه تمام ، ولوكان يعرف عنه هذا العيب قبل أن يشتريه ما اشتراه بحال من الأحوال ، و إذا اشتراه أحد فلا بد أن يبخس ثمنه ، فلا يحصل على قيمته الأصلية .. فماذا يفعل إذن ؟ ! عليه أن يعلن العيب ، وأن يصارح المشترى كائنا ما كان الأمر ، بالغة ما بلغت قيمة هذا العبد اللئيم . .

* * *

— أتبيع عبدك يا حماد ؟

— نعم يا زياد . .

— كم تطلب فيه ؟

— أنا لا أطلب مبلغا خاصا . .

— ولم ؟

— لأن فيه عيبا ، لا أدرى على وجه التحقيق كم ينقص من قيمته ، و يخفض من شأنه . .

— عيب واحد ؟

— أجل ، إنه عيب واحد ، لا ثانى له . .

— هذا سهل ميسور ، ليت الأمر يكون كما تقول يا حماد . .

— إنه كما أقول بالضبط ، فهو نشيط مجد إلى أبعد حدّ ، صبور قوى لا تضعف له همة ، ولا تهن له عزيمة . .

— وما هو عيبه ؟

— إنه نمام . . يفسد ما بين الأصدقاء والخلان ، ولا يرضيه السكون والهدوء ، بينما يرضيه الشجار والعراك . .

— هذا يسير ، وما قيمة هذا العيب بجانب عيوب العبيد . . رضيت بشرائه ، على أن أعطيك ثمنه الذى دفعته أنت فيه دون ربح ، فهل قبلت . . ؟ !

— نعم ، وما كنت أطمع فى هذا الثمن . .

— لا يرضينى أن تخسر فيه يا حماد . .

— شكرا يا أخى . .

* * *

وأخذ زياد عبده الجديد ، وهو فرح أشد الفرح ، لأنه ابتاعه بثمن زهيد . ما كان يظن أن يشتريه به . . إنه دفع نصف القيمة التى تناسب هذا العبد القوى ، الفارع العود . . أما هذا العيب الذى تحدث عنه حماد . فلا قيمة له فى نظره . . نمام . . وما قيمة النميمة بجانب هذه المزايا العظيمة ، المزايا الجسمية ، التى يتمتع بها هذا العبد . . إنه لا يريد منه إلا أن يكون طيعا صابرا قويا ، حتى يؤدى ما يكلف به ، ويُطلب منه ، ثم يكون بعد هذا ما يكون . . وهل يجد النمام فرصة إلا حيث يتصل بالناس من قرب ؟ إنه سيحول بينه وبين الناس ، فلن يخاطبهم ، ولن يتصل بهم ، إنه سيرهقه بالعمل المضنى ، حتى لا يجد فرصة لإرواء غلته ، أو إشباع نهمته ،

و إذا اعتاد هذا ابتعد عن هذا الداء اللعين ، ولا يضيره بعد هذا أنه كان متصفا به . .

وشارك زياد فى فرحته وسروره زوجته ، فسيكفيها هذا العبد مؤونة العمل الشاقّ ، والجهد المتواصل الذى تبذله فى البيت من حين إلى حين ، فمطالب زياد كثيرة ، وضيوفه كالسيل لا يهدأ ولا ينقطع ، وقبيلته كثيرة العدد ، يسود بينها التراحم والود ، فهى متواصلة على الدوام . . وما أهنأ لقلب المرأة من خادم أمين ، قوى صبور ، طيّع لا يعصى لها أمرا ولا يناقشها الحساب من حين إلى حين . . إنها لتجد فيه السعادة التى ليس بعدها سعادة ، إذ يكون عونا لها ودرعا ، يسهل به كل صعب ، ويذال به كل عسير .

وطافت هذه الفرحة بالقبيلتين . . . قبيلة زياد ، الزوج الوفى لزوجته ، الحريص كل الحرص على ما يرضيها ، ويسعدها على الدوام ، لا ينى عن ذلك جهده ؛ ولا تضعف همته ، مهما بذل فى هذه السبيل طائل الأموال ، وتحمل جسيم النفقات . . وقبيلة ميمونة ، الزوجة الجميلة التى لها من شرفها وعفتها خير تاج ، طيّعة مؤدبة ، تحفظ لزوجها الود وتبادله حبا بحب ، وإخلاصا بإخلاص ، لم يطغها ثراء قبيلتها ، ولا جمالها الذى صار مضرب المثل ، فى البيئة التى تحيا فيها ، فى بوادى الشام . .

وشارك الأضياف هؤلاء فى فرحهم ، وسروا بهذا العبد الجديد الذى

ومضى شهر ، وتبعه آخر ، وتبعهما ثالث ، وزياد يلاحظ العبد بدقة ، فلا يرى أثرا لذلك العيب الذى تحدث عنه حماد ، فداخله الشك حينا ، ثم زال هذا الشك ، واعتقد أنه لابد وأن يكون بَرِئ منه إلى غير رجعة إن شاء الله . .

* * *

هبت الريح رخية هادئة ، تنعش النفوس ، وتبعث الآمال ، وتحيى الرجاء ، ووهنت قوى الشمس ، وفترت عزيمتها ، فألقت على الصحراء تلك الأشعة الحمراء المتخاذلة ، ولم تمض دقائق حتى غاب قرص الشمس ، وبقى الضوء منتشراً فى الأفق ، يلف هذه التلال والهضاب المحيطة بخيام زياد وقبيلته بثوب رقيق شفاف . . وارتفع فى الجو أطيط الإبل وثغاء الشاء ، ونباح الكلاب ، وقوقأة الدجاج ، الذى أخذ يتجه إلى عشته حيث يخفت صوته بعد حين ، حينما ينشر الظلام رداءه على الكون .

وجلست ميمونة أمام خيمتها تنظر إلى الأفق البعيد ، وليس معها غير عبدها الذى قبع بجوارها ، وتناثرت خيام قبيلة زياد من بعيد فى كرم وترف ، فكل خيمة يتبعها عدد من الخيام الصغيرة فيها ما يحتاجون إليه من متاع وحاجيات .

واقترب العبد من سيدته وتكلم فى صوت مرتجف ، ولكنه يبدو فيه رنة الإخلاص والنصيحة والوفاء :

— سيدتى !

— نعم

— إن عندى سراً أريد أن أقوله ..

— وأى سر تعنى ؟ تكلم ..

— ولكن ..

— ولكن ماذا ؟ قل ولا تخف ..

— أتعدينني أن تخفيه عن سيدى؟.

— إذا كان يستحق الإخفاء ..

— إنه يستحقه لا جرم .. إن سيدى لو علم ما سأقوله لك لذبحنى ..

وذهلت ميمونة عند ذلك ، وارتجفت رجفة شديدة . وقالت فى عزم وقوة :

— إذن فلن يعلم بهذا السر إنسان ..

— إذن فاعلمى أن سيدى ...

وصمت العبد مرتبكاً مضطرباً فصاحت ميمونة :

— سيدك ما ذا ؟ تكلم ..

— إن سيدى له خليلة يخصها بالفضل والخير ..

— خليلة ... خليلة ... ماذا تقول .. ؟ !

— إنى لك الوفى الأمين .. إنى أصدقك الخبر .

— زياد له خليلة ؟! يعرف امرأة غير زوجته !.

وما أسرع تصديق المرأة لهذا النوع من الأخبار ، إنها لا تقوى بحال من الأحوال على الصبر والجلد ، بل سرعان ما يتزعزع إيمانها بزوجها

وتضعف ثقتها به ، مهما كان نصيب هذا الخبر من الكذب والافتراء ؛ ومهما بلغ حبها لزوجها أرقى درجة من القوة ، والإخلاص والوفاء .. إنها حينما تسمع خبراً من هذا القبيل تنسى كل شيء ، لا تتروى ، ولا تهدأ ولا تتأكد من الخبر ، أو تتثبت كما يجب ، بل تسرع بالاتهام لأول وهلة ، ويطير صوابها ، وتصبح كالمخبولة التي لا تعي شيئا . .

وهذا ما كان ، إذ اضطربت ميمونة لهذا الخبر ، الذي هزها هزاً عنيفاً ، وزلزل كيانها ، وأحست بالجو يكاد يخنق أنفاسها ، ويقضي عليها القضاء الأخير . . خيل إليها أنها صارت عمياء ، لا تبصر شيئاً مما حولها ، وأن زوجها يخونها دائماً ، وأنه الآن في أحضان تلك المرأة اللعوب ، التي تفتنه وتغريه ، وتسلبه لبه وماله ، وتصرفه عنها !.

ويحكِ يا ميمونة ، كيف عشت بجوار زوجك هذه المدة الطويلة ، ثلاث سنوات كاملات ، وأنت لا تفهمين الحقيقة الأليمة ؟ إن كلامه كله رياء ونفاق ، إنه حينما يلقي إليك بكلمة طيبة من كلمات الحب والهيام ، لا يقصد بها معناها ، وإنما يقصد بها التغرير والكذب ، والخديعة والمكر .. ويحك ياميمونة ، لقد أخلصت له الود ، وأضمرت له الحب ، وقصرت قلبك عليه هودون سواه .. كم غازلك كثير من أقاربه وأصهاره ، وهم أجمل منه ، وأكثر ثراء ، وكان في مكنتك أن تلبي إشاراتهم ، وأن تتخذي لك خليلا وصديقاً من أحدهم ، ولكن الشرف والوفاء والحب ، والإخلاص القوى ، كل هذا منعك من الاستجابة لنداء هؤلاء ، وقد استعملت الحكمة حين اكتفيت بالإعراض عنهم ، ولم تفضحي واحداً منهم ،

خشية أن تقع القطيعة بين أفراد القبيلة .. ويحك يا ميمونة ، اندفعت مع هذه الألفاظ التى أصبحت لغير مدلول .. كلمات الشرف والحب والوفاء والود ، وسجنت نفسك فى هـذه الخيمة ، بينما سار هو فى طريق رحب وسيع ، يجد لذائذه وشهواته سهلة ميسورة ، ما دام قد وضع على عينيك غشاء ، واطمأن إلى جانبك ، وعلم أنك محـــافظة على شرفه ، صائنة عرضه .

واندفعت مع الشيطان يسير بها فى طرق ملتوية من التفـكير الآثم ، والرأى الدنىء ، وبدنها يقشعر حيناً ، أو يهتز طرباً حيناً آخر .. ورأت الدم الأحمر القانى يسيل ، فبسمت له مادام سيروى غلتها ، ويشبع نهمتها ، ويرضى رغبتها فى الثأر لـكرامتها ، ونيل ما تريد من الانتقام .. !!

وعادت بذاكرتها إلى السنوات الثلاث التى قضتها مع زوجها ، فإذا بحياتها فى هذه السنوات يتغير لونها ، وتأخذ صبغة أخرى ، فـكل جميل أصبح دميما ، وكل حسن صار قبيحاً ، وإذا بهذه الحياة الرغدة الناعمة ، التى لم تشعر فيها بهمّ أبداً ، حتى هـــذه اللحظات التى جلس إليها العبد وألقى إليها هذا الخبر ـ إذا بهذه الحياة تصبح جحيما لا يطاق ..

يا لله ما أسرع الشيطان إلى استجابة الدعاء .. وما أقواه فى افتعال

وقال العبد فى لؤم ، وهو يقترب من سيدته ميمونة ؛ ويكاد يلمس أذنها بفمه :

— لاتحزنى ياسيدتى ..

— وكيف لا أحزن ، وهذا خبر صاعق ..

— عندى حل لهذا المشكل .

— حل ؟ وما هو ؟ !

— خذى الموسى ، واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات وأعطيها لى ، ودعى الأمر أتصرف فيه .

— وماذا تفعل بها ؟

— سأسحر له عليها ..

— هل تريد قتله بالسحر ؟ !

— كلا ، بل ليهيم بك ويحبك

— وهل فى مكنة السحر أن يعمل هذا ؟

— أجل وسترين .

* * *

ووقعت المرأة فى حيرة قاتلة . وانتابها لون من ألوان الخبل لشدة اضطرابها ، وخيل إليها أنها لن تتمكن من حلق هذه الشعرات ، إذ ربما نخونها يدها فتجرح زوجها ، وتسوء العاقبة .. إذن كيف تحصل على هذه الشعرات من قفاه .

وعبثاً حاولت أن تجد طريقة غير الطريقة التى أخبرها بها العبد ، وهى أن تنتهز فرصة نومه ليلا ، وباللوسى بالذات .

وسرعان ما قامت إلى الموسى تسنه فى عناية بالغة ، ووضعته فى مكان أمين ، تصل إليه بسهولة دون تعب ولا عناء ، وتكلفت الحزم ؛ وأنها لا تأبه بكل ما سمعت ، ما دامت النتيجة النهائية هى محبة زوجها لها ، عن طريق السحر .

إن هذا العبد قدم إليها نعمة عظمى ، وبداً لن تنساها له أبد الدهر ، وكيف لا ، وقد أنقذها من هوة سحيقة ظلت فيها ثلاث سنوات هائمة لا تدرى من أمرها شيئاً ، ولا تعرف كيف تسير .. أما الآن فستصل إلى بَر الأمان والسلامة ، من أيسر طريق ، وستغدق على هذا العبد نعمها ، وتتخذه دائماً الناصح الأمين ، والمرشد الحصيف ، الذى يدبر لها الرأى ؛ ويضع لها الخطط فى أشد المشكلات تعقيداً ؛ وأكثرها خفاء والتواء .

وأسرعت إلى خيمتها عندما رأت غباراً متصاعداً من بعيد ، وفارساً مقبلا نحو مضارب الخيام .. إنه زياد بلا شك ، فأخذت تتشاغل بتنظيم الخيمة ، وإعداد بعض شئونها .

* * *

ما كاد زياد يستريح من وعثاء الطريق ، حتى أقبل إليه عبده فى خوف مصطنع ، وأسرّ إليه حديثاً خافتاً ، خشية أن تسمعه سيدته ، وقد أبدى لسيده الإخلاص والوفاء ، والحب والإيثار .

« إن سيدتى اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك ... !! »

يا لله كيف ذلك ، ماذا يقول هذا العبد اللعين ؟ وكاد يصفعه صفعة تدنيه من قبره ، وتلقى به إلى طبقات الجحيم ؛ إلاّ أنه تمالك نفسه ، وسيطر على عواطفه ، وجلس ذاهلاً مفكراً .. ألا يجوز أن يكون هذا الكلام على درجة من الصدق بالغة ما بلغت ؟! وإذا كان هذا صحيحاً ، أفلا يجوز أن يحتاط للأمر ، ويتخذ له أهبته ، حتى إذا فوجئ بهذا الغدر أمكنه أن يقابله بمثله ، أو يدفع عن نفسه الشر على الأقل ؟ ... وكيف عرف هـذا العبد اللئيم ذلك ؟ لابد أنه رأى ذلك الخليل مرة ومرة ومرات .. هذا طبيعى ، لأنه ملازم للدار ؛ ومن الجائز أنه تستّر على سيدته عدة مرات ، ثم استمع أخيراً إلى نداء الضمير .. ان هذا الخبر لابد وأن يكون صحيحاً ، وإلا فكيف يجسر هذا العبد على إلقائه ، وإخباره به على هذه الصورة ، وميمونة قريبة منهما ؟ إنه لو كان كاذباً ما جرأ على أن يسر إليه الخبر هكذا .. إنه لابد وأن يكون واثقاً مما يقول ، وأن لديه البرهان القاطع ، على هذا الخبر الأثيم .. يا لله ! كيف يعاشرها هذه المدة الطويلة ، وهو لا يدرى من أمرها شيئاً .. إذن لقد كان واهماً فى حبه العميق لها طوال هذه السنوات الثلاث .. شرفه يلوث ؟ عرضه ينتهك ؟ كيف ذلك ؟ . أهكذا يظل طوال هذه المدة ، ألعوبة هذه المرأة اللعوب ؟ يالله ! كيف أجادت لعب هذا الدور إلى هذا الحد العجيب ؟ .. إنه لم يبد عليها شيء من الشك فى سلوكها ، أو الريبة فى حياتها ، فهل تجيد المرأة إتقان الأدوار إلى هذا الحد ؟ !

وخاطب عبده فى صوت خافت :

— هل تأكدت مما تقول ؟

— تأكدى من وجودك الآن .

— ألديك برهان ؟

— يمكنك أن ترى بنفسك .

— متى ؟ وكيف ؟

— الليـــــلة ...

— الليلة ؟ !

— نعم ستحضر إليك عندما يلف الكون الظلام الحالك ؛ وفى يدها موسى حاد .

— وفى يدها موسى حاد ؟!

— أجل وستقتلك به .

— تقتلنى أنا ؟ أنا زوجها الوفى الأمين ؟ لقد فهمتُ الآن السبب .. إنها تريد أن تتخلص منى ، ليخلو لها الجوّ مع عشيقها وخليلها .. ولـكنى لن أدعها تنعم بالحياة بعد الآن .. سأقتلها .. سأقتلها ..

— خفض صوتك فإنها قريبة منا ، وأخشى أن تسمع ما يدور بيننا من حديث فتفشل الحيلة ..

— وأية حيلة تعنى ؟ .

— أعنى أنك تتناوم لهـا ، حتى إذا جاءت على ما ذكرت لك ، أمكنك أن تدفع الشر عن نفسك .

وساد الوجوم بين الزوجين ، وتناولا طعام العشاء ، وكان حديثهما صطنعاً متكلفاً ، فكل منهما يضمر لصاحبه أسوأ ما عرفته النفس العربية لكلومة من شر ، النفس العربية التى تريد أن تثأر لشرفها وكرامتها .

وأوى كل إلى فراشه ، بيد أن الوقت امتد واستطال ، وخيل إليها ن الدقيقة ساعة كاملة .. وظلا على هذه الحال حتى انتصف الليل ، نامت الزوجة ، وألقت اللحاف بعيداً عنها ، وسارت على قدميها فى لين احتراس وحذر شديد ، حتى وصلت إلى مكان الموسى ، وأخذته ، ثم ادت ثانية إلى فراشها تستجمع قواها الواهنة الضعيفة ، فلقد شعرت بأن نها تهدم وانهد ، وأن المهمة التى قبلت أن تقوم بها عسيرة شاقة ، وأنها ن يمكنها أن تدخل على زوجها فى خيمته الآن .. إنه يخيل إليها أن كون كله عيون محملقة ترميها شذراً وازدراء ، وأن كل ما حولها آذان صيخة تتسمع خطاها ، وتنصت إلى وقع أقدامها ، وأنها لن تنجو من شر فى هذه الليلة المشئومة اللعينة .. وتملكها الخوف والرهبة ، الاضطراب والرعب ، فدفعت بالموسى تحت وسادتها ، وانتوت أن ام ولا تقدم على هذه المغامرة الخطرة ، التى لا تشعر نحوها بغير الوجل لتشاؤم ! .

بيد أنها قامت ثانية ، وقد وجدت من نفسها قوة وجرأة ، وتملكتها جاعة دافعة ، وبخاصة عندما سمعت شخير زوجها يتصاعد فيملأ الجو ، طمأنت ، واعتقدت أنه راح فى نوم عميق ، يمكنها من قضاء مهمتها ن افتضاح أمرها .

وسارت على أطراف أصابعها رويداً رويداً ، وما كادت تصل إلى زوجها وتضع يدها على رأسه حتى هبّ من نومه ممسكا بيدها فى عنف وشدة ، ولم يتمهل أو يتريث ، بل لوى يدها ، فرضخت فى صوت مكتوم خشية الفضيحة ، ولـكنه لم يمهلها ، بل سرعان ما أمسك رقبتها بيديه القويتين ، ولم يدعها حتى سقطت جثة هامدة ... !!

* * *

وشاع الخبر ، وأقبلت قبيلتها عن بكرة أبيها ، ولم يهدأ لها بال حتى أسقطته قتيلا بجانب زوجته .

وامتشق كل فرد من أفراد القبيلتين حسامه ، واستمر بينهما القتال ، وصفق الشيطان من بعيد ...

وشاهد العبد اللعين كل ما حدث عن قرب وهو هادئ النفس ، مطمئن الخاطر ، مرتاح الضمير ، لأنه لم يعلم بالحقيقة إنسان ، ولـكن لعنة الله كانت تلاحقه فى مراحه ومغداه ... !!